11 جوهر المشكلة في العلاقات المصرية الإسرائيلية

العلاقات المصرية الإسرائيلية تمر بأزمة معلنة وعشرات الأزمات غير المعلنة. فقد أطلقت وزيرة الخارجية الإسرائيلية تصريحات حادة اتهمت مصر فيها نفس الاتهامات المتكررة، وهى عدم إحكام السيطرة على حدودها رغم قدرتها على ذلك، كما اعترف موفاز، الوزير في الحكومة الإسرائيلية، أن ضغط واشنطن على مصر بوسائلها أجدى من الشكوى الإسرائيلية . استجاب الكونجرس بمجلسيه لشكوى إسرائيل وقرر خطوة رمزية وهى احتجاز ١٠٠ مليون دولار من المعونة السنوية لمصر، وأن يتم الإفراج عنها بعد أن تقرر وزيرة الخارجية الأمريكية أن مصر أوفت بالتزاماتها على الحدود المصرية الإسرائيلية وأنها منعت الأنفاق وتهريب السلاح.

من الجانب المصري، اتهم وزير الخارجية المصري إسرائيل بتعكير العلاقات المصرية الأمريكية، وأن افتعال الأزمة مع مصر هي محاولة للتغطية على فشل إسرائيل في تنفيذ قرارات أنابولس ، خاصة مع تنفيذ برنامج استيطاني في القدس الشرقية، ثم أدلى الرئيس مبارك يوم ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٧ بحديث لصحيفة يدعوت أحرونوت رفضه القيود على المعونة، وأكد حرصه على العلاقات الثنائية مع إسرائيل، كما تحدث بمرارة عن تجاوز وزيرة الخارجية كل الخطوط الحمراء معه رغم أهمية العلاقات مع إسرائيل بالنسبة له. من ناحية أخرى شنت الصحف

الإسرائيلية وبعض الأوساط السياسية هجومًا لاذعا على مصر، وطالب بعضها بقطع العلاقات معها، واتهمت هذه الأوساط مصر أنها تتمنى الشر لإسرائيل. معنى ذلك أن هناك مشكلة في العلاقات المصرية الإسرائيلية تحتاج إلى تحليل لمعرفة مصير هذه الأزمة العلنية، وأسباب ظهورها إلى العلن بعد أن كانت كل الأزمات - رغم خطورتها - يتم تسويتها بالطرق الودية كما قال الرئيس مبارك .

من الواضح أن العلاقات بين مصر وإسرائيل تتسم بخصوصية لا يمكن تجاهلها. وتتمثل هذه الخصوصية في عدد من السمات لهذه العلاقات؛ فهي علاقات محورية بين إسرائيل من ناحية وأكبر دولة عربية من ناحية أخرى ، وأن أى انهيار في هذه العلاقات قد يعنى إعادة فتح باب الصراع العربي الإسرائيلي.

وإذا كان تقديري أن خصوصية هذه العلاقات هي التي أدت إلى صمود هذه العلاقات طيلة ربع القرن الماضي، فإن انفراط عقد هذه العلاقات لن يعيد المشهد في المنطقة إلى ما كان عليه عام ١٩٧٩، لأن جميع المعطيات الإقليمية والعالمية قد تغيرت. تتمثل الخصوصية أيضا في مركزية العلاقات الإسرائيلية مع العالم العربي من خلال مصر، وبغير مصر ينهار سياق العلاقات الإسرائيلية على الأقل مع الدول التي تقاطع إسرائيل إكراماً للعالم العربي. والخصوصية من طرف ثالث تتمثل في أن فكرة السلام الاستراتيجي بين البلدين قد فسرها كل بطريقته؛ ففهمت مصر السلام الاستراتيجي على أنها ضمنت الجبهة الإسرائيلية وأنها تستطيع أن تتفرغ لقضاياها المباشرة دون أن تتورط في صراعات أخرى مع إسرائيل.

من ناحية رابعة، وهو الأهم، فإن العلاقات المصرية الإسرائيلية قد أصبحت هي العلاقات الأساسية منذ ١٩٧٩ بعد أن كانت العلاقات المصرية الأمريكية هي الأساس. فقبل عام ١٩٧٩ كانت الولايات المتحدة تلعب دور الوسيط بين

الطرفين، وكان تدهور العلاقات المصرية الإسرائيلية المنعدمة أصلاً لا يؤدى إلى أى أثر في العلاقات المصرية الأمريكية. أما بعد ١٩٧٩ فقد حدث تطوران خطيران نتيجة فهم مصر لعلاقاتها بإسرائيل على أنها الوجه الآخر للعلاقات المصرية العربية، وخيرت نفسها أو أجبرت على الاختيار بين إسرائيل والعالم العربي ؛ ذلك أن منطق المعونة الأمريكية لمصر في أول مذكرة قدمت لوزارة الخارجية الأمريكية إلى الكونجرس تنص على تبرير لهذه المعونات على أن هدفها هو أن تستغني مصر عن المعونات العربية، أى اختزلت العلاقات المصرية العربية في بند واحد وهو المعونة. كما أشارت المذكرة إلى أن الهدف الآخر للمعونة هو تشجيع مصر على الصمود في عملية السلام مع إسرائيل ، وأن تشجع مصر الدول العربية الأخرى على الانخراط في عملية السلام . أي أن المعونة كانت مساندة لمصر في خلافها مع العالم العربي رغم أن واشنطن كالعادة شجعت العالم العربي على مقاطعة مصر بقدر تقارب مصر مع إسرائيل ، فلم يعد ممكناً في الصيغة الأمريكية الجمع بين مصر وإسرائيل والدول العربية إلا في سياق واحد هو دخول الجميع إلى قفص التسوية السلمية .

ولذلك يجب أن نلاحظ في الخطاب السياسي الأمريكي أن واشنطن تحث مصر على المزيد من الدور في عملية السلام، أي تشجيع الدول العربية على التطبيع مع إسرائيل. وبذلك أصبحت المعونة مقابل استمرار مصر في خندق السلام مع إسرائيل وبالشروط الإسرائيلية ،وأن تقوم مصر بدور في السلام بين إسرائيل والدول العربية، وأن تقوم بأدوار بين إسرائيل والفلسطينيين لتحقيق أهداف إسرائيل، أي أن مصر انتقلت من مرتبة المساند للقضية الفلسطينية، إلى مرتبة الوسيط بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

أما النتيجة الثانية الخطيرة فهي : أن الولايات المتحدة قد قضت تماما على فرص

العمل العربي المشترك بقيادة مصر ، لأنه في نظر واشنطن كان موجهاً ضد إسرائيل، فأقامت واشنطن علاقات ثنائية حديدية بين واشنطن وكل دولة عربية على حده، ولذلك فإن الحديث في ظل هذا الوضع عن تضامن عربي أو موقف عربي ينطوي إما عن جهل بهذه الحقيقة أو لحفظ ماء الوجه، وينطبق ذلك بداهة على الجامعة العربية. بعبارة أوضح، فإن مصر منذ عام ١٩٧٩ قد استراحت لحقيقة بدأت وتضخمت، وهى أن الأصل هو العلاقات المصرية الإسرائيلية، وأن الفرع والنتيجة هو العلاقات المصرية الأمريكية ، فإن رضيت إسرائيل رضيت أمريكا، وإن غضبت إسرائيل غضبت أمريكا.

ولذلك لست مندهشاً من تدهور العلاقات المصرية الأمريكية، ولكنني أقدر لمصر طموحها في محاولة أن تجمع بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ولكن المعالجة الجذرية لهذه المشكلة لن تتم إلا بإعادة ترتيب رؤية مصر لعلاقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية كأصل ومحاولة تحيد العامل الإسرائيلي في هذه العلاقات وهو أمر بالغ الصعوبة ولكنه ممكن التنفيذ. وما لم يتم إجراء هذا الإصلاح الجوهري، فإن العلاقات بين مصر وكل من إسرائيل والولايات المتحدة من ناحية أخرى، ستشهد فصولاً جديدة من التوتر والتدهور.

أما الأزمة الأخيرة، فإن نقلها من دائرة التسوية الودية إلى دائرة الصحافة، ومجاهرة إسرائيل بأنها هي التي حرضت واشنطن على مصر، رغم أنها تحرضها دائماً وهى التي سممت دائماً العلاقات المصرية الأمريكية، فهي تعكس رغبة إسرائيل في الضغط على مصر وإحراجها بشكل علني. وتفسير هذا المسلك الإسرائيلي يحتاج إلى مجهود كبير، ولا أظن أن بعض التفسيرات التي ذهبت إلى أن موقف وزيرة الخارجية لا يقصد به مصر وإنما نتيجة صراع سياسي مع باراك هو تفسير معقول.لوحظ أيضاً أن الصحف الإسرائيلية تهاجم مصر هجوماً حاداً كما يهاجمها السياسيون بينما اتسمت الصحافة

المصرية «بالترفع» عن مهاجمة إسرائيل وخاصة الصحف القومية.

من ناحية ثالثة، لوحظ أن مصر تحاول بكل الطرق إرضاء إسرائيل وأن النقد الإسرائيلي العلني كان صدمة «للعشم» المصري في إسرائيل، أي أن هناك دائرة ضيقة تسمح للطرفين بالعتاب الرقيق حتى لا ينقطع حبل الود الذي يحرصان عليه رغم خلو قلبهما من الحب المتبادل، ورغم أن مصر قررت أنها فعلت كل ما تستطيع لترضية إسرائيل فيما شكت منه. وهذا يشير إلى حرص مصر على عدم استمرار الجدل مع إسرائيل دون أن ندرى متى تتوقف إسرائيل عن الشكوى، ولا نعلم لماذا جهر الكونجرس هذه المرة بموقف بالغ الإحراج.

لا أظن أن حل هذه المشكلة بين مصر من ناحية وأمريكا وإسرائيل من ناحية أخرى يمكن أن يتم عن طريق المسكنات، مادام الخلل الهيكلي في العلاقات الثلاثية قائماً. كما لا نظن أن الحل الراديكالي يمكن أن يحقق المصالح المصرية، وذلك بقطع العلاقات مع إسرائيل ورفض المعونة من الولايات المتحدة. ولكن لفت النظر في النهاية أن المطالبة بقطع العلاقات مع مصر قد صدرت هذه المرة، ولأول مرة من الجانب الإسرائيلي، مما يعنى أن إسرائيل تعتبر الآن أن علاقاتها مع مصر أصبحت لصالح مصر، وأن قطع هذه العلاقات تعتبر عقوبة لمصر. أما مطالبة المصريين بقطع العلاقات مع إسرائيل وإنهاء اتفاقية السلام معها فإنه ينطوي على مدلولات أخرى تتعلق بأملهم في أن تكون مصر كما كانت قلعة العروبة والاستقلال والدور وعدم الخضوع لأحد، كما تنطوي هذه المطالبة على رفض المسلك الإسرائيلي مثلما تنطوي في النهاية على رغبة الجمهور المصري في ألا تستفيد إسرائيل من وضع العلاقات في الحالة المريحة تماماً بالنسبة لها، والذي يجعل مصر شيئاً غير مذكور في القرار الإسرائيلي، بينما يجعل رغبات إسرائيل قيداً صارماً على القرار المصري.